إِنْحِرَافُ الْأُمَمِ وَطَبِيْعَةُ الصِّرَاعِ فِيْ عُصُوْرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

-دِرَاسَةٌ قُرْآنِيَّةٌ-

The Deviation of Nations and the Nature of Conflict in the Eras of the Prophets (Peace Be Upon Them) – A Qur'anic Study

د .باسم دخيل العابديّ

Dr. Basim Dakhil Al-Abadi

العراق / كلّيّة الفقه الجامعة / قسم القرآن الكريم

Iraq / College of Jurisprudence / Al-Najaf Al-Ashraf/ Department of the Holy Quran

alabedy7@gmail.com

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ البحث:

ترجِع جذور الانحراف العقديّ إلى عصر سابق عن ولادة الإنسان في الأرض عندما دعا الله سبحانه الملائكة ومعهم إبليس للسّجود لآدمَ في اختبار لم ينجح فيه إبليس مع اتّصافه بالعلم والعبادة لسنين طويلة، وفي هذا دلالة على أنّ حصول الاستقامة ودوامها منوط بالعمل والتّوفيق، وليس بطريقة العبادة وطول مدّتها أو قصرها باللّحاظ الزّمنيّ، وكانت هذه الواقعة بمثابة اللّبنة الأولى في جدار الانحراف؛ حين تسلّل بعدها إلى المجتمعات البشريّة، وكان سمة غالبة في تأريخ الأمم السّابقة على الإسلام، وفي عصور الأنبياء عليهم السلام؛ فقد واجه الأنبياء عليهم السلام انحرافات أقوامهم بصورة أو بأخرى.

تناول البحث نماذجَ من التّجارب التّأريخيّة؛ ومنها جهود الأنبياء عليهم السلام في مقارعة الانحرافات، وكذا تمايز المراحل التّأريخيّة وتدرّجها في تلقّي الإيمان حين كان الكفر عامًّا شاملًا، بل كان يجثمُ في بواطن بيوت الأنبياء عليهم السلام كما في حالة امرأة نوح عليه السلام وابنه، وامرأة لوط عليه السلام.

بالمقابل لم ينطفئ نور الإيمان وما زال يعمل على إزاحة الكفر حتّى تغلغل إلى دار الكافر نفسه بدخول موسى عليه السلام إلى بيت فرعون الكافر .

ثمّ تعرّض البحث إلى بيان أسباب الانحراف ومناشئه، وأورد مجموعة من العوامل الّتي شكّلت بيئته الحاضنة وتربته الصّالحة.

ثمّ بيّن البحث معايير الخلاص من الانحراف وحدّدها بمجموعة من المعايير، منها: كتاب الله تعالى الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومنها: أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام، ورثة الأنبياء والأمان لأهل الأرض من الزّيغ والزّلل، وورثتهم من العلماء العاملين.

الكلمات المفتاحيّة: الانحراف – الصّراع – الأم – العصور – الأنبياء.

the wife and son of Prophet Noah (peace be upon him) and the wife of Prophet Lot (peace be upon him). Conversely، the light of faith never faded; rather، it continued to challenge disbelief، even penetrating the heart of a disbeliever's home، as exemplified by Prophet Moses (peace be upon him) being raised in the house of Pharaoh.

Furthermore، the study analyzes the causes and origins of deviation، identifying a set of factors that contributed to its emergence and persistence. It also establishes criteria for salvation from deviation، outlining key principles، including adherence to the Book of God، which is free from falsehood، and following the Ahl al-Bayt—the heirs of the prophets and the safeguard of humanity against deviation and error—as well as their successors among the righteous scholars.

k**eywords: Deviation – Conflict – Nations – Eras – Prophets.**

Abstract :

The roots of doctrinal deviation trace back to a time preceding the existence of humanity on Earth when God commanded the angels، along with Iblis، to prostrate before Adam. Iblis failed this test despite his extensive knowledge and years of worship. This incident highlights that righteousness and its continuity depend on one's deeds and divine guidance rather than the mere duration or form of worship. This event marked the first foundation stone in the structure of deviation، which later infiltrated human societies and became a dominant characteristic in the histories of pre-Islamic nations and the eras of the prophets. Throughout history، prophets (peace be upon them) confronted the deviations of their peoples in various forms.

This study examines historical experiences، focusing on the efforts of prophets in combating deviations. It also explores the progression of historical stages in receiving faith، particularly during times when disbelief was widespread—even extending into the very households of prophets، as seen in the cases of

المقدّمة:

تتبع المجتمعات البشريّة أنماطًا مختلفة من السّلوك والاعتقادات والأفكار يتّصف بعضها بالحقّة؛ في ما يتّصف بعضها الآخر بمجانبة الحقّ ومجافاته، وقد لازم -هذا التّفاوت البشريّ- منذ طفولتها.

فسلوك طريق الانحراف اختيار إراديّ بعد أنْ بيّن الله تعالى سبحانه وتعالى معالم الطّريق في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1] إذ (إنّ الإنسان لو تعوّد على انحراف واستأنس به، يتّخذ في المرحلة الأولى ماهيّة الحالة ثمّ يتحوّل إلى عادة وبعدها يصبح مَلَكةً و جزءًا من تكوين الإنسان حتّى يبلغ أحيانًا درجة لا يستطيع أنْ يتخلّى عنها أبدًا، لكنّ الإنسان اختار طريق الانحراف هذا عن علم ووعي، ومن هنا كان هو المسؤول عن عواقب أعماله، من دون أنْ يكون في المسألة جبرٌ، تمامًا مثل شخص فقأ عينيه وسدَّ أذنيه عمدًا، كي لا يسمع ولا يرى)[2]، وردّ القرآن الكريم قول مَن قالوا إنّهم مجبرون على أفعالهم في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[3].

إنّ هؤلاء المشركين يتذرّعون بالجبر وعدم الاختيار بصدور الشّرك عنهم، ولكنّ الله تعالى كذّب مدّعاهم هذا، وذكّرهم بأنّ أعمالهم -شرّها وخيرها-

تعوّد عليهم، وأنّ الله تعالى لايظلم أحدًا؛ إذ يقول تعالى:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(٤).

إنّ دراسة الواقع المعاصر، وفهم تداعياته يرتبط جزء مهمّ وكبير منها بقراءة التّجرِبة التّأريخيّة، واستدعاء أحداثها، وطبيعتها، وآثارها في المجتمعات السّابقة على الإسلام، ومدى اجترار المجتمع الإسلاميّ لها وتأثّره بها، إمّا من جهة استنساخ تلك السّنن والعادات المتوارثة والتقاطها واتّباعها، وإمّا من إغلاق الفكر والجمود أمام الأخذ بالتّجرِبة الإيجابيّة واتّباعها والإفادة من مواضع الضّياء فيها.

ومن هنا نورد هذا الدّراسة في مبحثين أملًا في أنْ تكونَ حلقة فكريّة نافعة، ونقطة ضوء تضيء بعضًا من عتمة الطّريق بسبب ما يسود المجتمعات الإنسانيّة والإسلاميّة في هذه الأزمنة من مناهجَ واتّجاهات انحرافيّة بالغة الخطورة.

المبحث الأوّل: الانحراف قراءة تأريخيّة في ضوء التّجرِبة الإنسانيّة

نتناول في هذا المبحث طبيعة التّجرِبة الانسانيّة والصّدمات الفكريّة الّتي مرّت بها في عصور الأنبياء السّابقين على ولادة الإسلام؛ إذ إنّ هذه التّجارب سلسلة متواصلة يرتبط بعضها ببعض، وتتأثّر كلّ تجربة بما سبقها إيجابًا أو سلبًا، فيكون عرض تلك الصّور الحادثة في حياة الأنبياء عليهم السلام موردًا من موارد الوعي الاجتماعيّ للمسلمين.

المطلب الأوّل: انحرافات أمم الأنبياء عليهم السلام السّابقين على الإسلام.

اصطدمت البشريّة في طفولتها ببروز حالة الانحراف، ولم تستطع تجاوز آثارها، فكان سقوط قابيل صدمة البشريّة الأولى الّتي كانت حركة انحرافيّة فرديّة، إلّا أنّ البشريّة استمرأت حالة الانحراف ولم تجتثَّه، فتحوّل من حالة فرديّة بدأها قابيل إلى حالة جمعيّة بدأت تظهر بصور شتّى توّجتها بمعاداة أنبياء الله تعإلى ورسله صلوات الله وسلامه عليهم بكيفّيات وصور واتّجاهات ثلاثة نعرض لها في ما يأتي:

الاتّجاه الأوّل: انحراف الأمم من دون تأثير السّلطة.

يُعَدّ هذا النّوع من الانحراف أحد النّماذج التّأريخيّة الّتي واجهها الأنبياء عليهم السلام وهو انحراف الأمم نفسها من دون إيعاز أو قرار من سلطان ورئيس وحاكم يقودها إلى الانحراف، ويحملها على التّمرّد على الإيمان المتمثّل بالأنبياء عليهم السلام،

وقد واجهت بعض التّجارب النّبويّة هذا النّوع من الانحراف عنها، نعرض نماذجَ منها:

الأنموذج الأوّل: انحراف قوم نوح عليه السلام.

تُعَدّ تجرِبة النّبيّ نوح عليه السلام مع قومه إحدى التّجارب المهمّة في تأريخ المواجهة بين الإيمان والكفر؛ فقد ألقى القرآن الكريم الضّوء على هذه التّجرِبة وبيّن طبيعة الصّراع بين نوح عليه السلام وبين قومه، ومواجهته لحركة الانحراف الشّعبيّ عقائديًّا وفكريًّا، من دون أنْ يذكرَ لنا القرآن الكريم أو غيره من الكتب السّماويّة أنّ نوحًا عليه السلام كان في مواجهة مع سلطة سياسيّة أو حكومة في زمانه؛ إذ كان الكفر والانحراف حالة شعبيّة عامّة؛ فقد كانت الأمّة في زمن نوح عليه السلام هي نفسها مصدر الانحراف وعماده دون إدارة حكوميّة، أو سلطة رسميّة، تأمر الشّعب أو الأمّة بمواجهة نوح عليه السلام، بل كان القوم أنفسهم مصدر الأذى الّذي سبّبوه لنوح عليه السلام حين أعلن دعوته بعد الإذن الإلهيّ له بإعلانها، وذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٥).

إلّا أنّهم أنكروا عليه ما أتى به ورفضوا الاستجابة لدعوته، وقد نقل القرآن الكريم مجريات الحوار بين نوح عليه السلام وبينهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ

مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾[٦].

ومن هنا بدأت حركة التّمرّد والاعتراض بالتّصاعد حتّى بلغت ذروتها بتسلّل الانحراف إلى خاصّة بيت نوح عليه السلام وأسرته فالتحقت امرأته وابنه بصفوف المعاندين المتمرّدين؛ وقد ذكر القرآن الكريم مشهد تمرّد زوجة نوح عليه السلام وانحرافها عنه في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[٧].

كذلك جاء في القرآن الكريم مشهد حوار نوح عليه السلام مع ابنه ودعوته له بالفرار من الانحراف والالتحاق بصف المؤمنين إلّا أنّ نداء الأبوّة وشفقتها الّتي صوّرها القرآن الكريم بأجمل تصوير لم يوقظ وعيه، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾[٨]، ولم يستمع لخطاب الرّأفة، وبلغ به العناد مبلغًا حمله على تحدّي والده المشفق؛ إذ قال القرآن الكريم على لسانه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[٩].

لقد تضافرت هذه القُوى (القوم والزّوجة والابن) تُجاه نوح عليه السلام والمجموعة القليلة الّتي آمنت معه، وبالغوا في التّحدّي، ولم تخفهم تحذيرات الرّجل المشفق عليهم؛ فصاروا يحثّونه على تعجيل العذاب ويجادلونه فيه: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(١٠).

فانتهى الأمر بهؤلاء القوم إلى الإغراق الّذي أخبر عنه الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهم وَجَعَلْنَاهم لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(١١).

واستقرّ الأمر بعد ذلك وخلُصت البشريّة إلى ولادة جديدة خلت من الفئة المنحرفة، وقد صوّر القرآن الكريم مشهد النّهاية في أبلغ تصوير؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١٢).

وبهذا المشهد طويت إحدى صفحات الانحراف في هذه المرحلة من حياة البشريّة، إلّا أنّ ثنائيّة الشّيطان والنّفس الأمّارة لم تدَع الإنسان يهنأ بالإيمان والصّلاح، ولن تتخلّى عن التّربّص به والكمون له؛ فتودي بالأمم والأفراد حيثما توافرت فرصة من غفلة روحيّة، أو فتور فكريّ لأمّة هنا، أو جماعة هناك؛ لذلك لم تكن هذه التّجرِبة التّأريخيّة وما آل له حال قوم نوح عليه السلام وإهلاكهم رادعًا عن تكرار انحراف الأمم الّتي جاءت بعدهم.

يظهر من دراسة الآيات المتعلّقة بهذه التّجرِبة النّبويّة أمور:

الأوّل: صور تعاطي قوم نوح عليه السلام وحالاتهم معه طَوال مدّة الدّعوة:

لم تكن العلاقة بين نوح وبين الأغلبيّة من قومه علاقة مستقيمة ومستقرّة وودّيّة، وإنّما كانت مشحونة بالتّخاصم والشّحن الفكريّ والعقديّ والأخلاقيّ؛ وقد ذكرت الآيات المباركة بعض مظاهر تعامل القوم ونعوتهم للنّبيّ عليه السلام وأفعالهم معه؛ ومن صورها:

١. السّخرية.

من أكثر الأفعال الّتي واجهوا بها نوحًا عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام؛ فقد كانوا يسخرون منه ويستهزئون به منذ بَدء دعوته؛ ولا سيّما حين شرع ببناء سفينة النّجاة؛ فقد ذكر القرآن الكريم ظاهرة السّخرية هذه في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾[١٣] .

والسّخرية: الاستهزاء؛ وهو تعجّب باحتقار، وسخريتهم منه حمل فعله على العبث بناء على اعتقادهم أنّ ما يصنعه لا يأتي بتصديق مدّعاه[١٤].

٢. التّحقير وتعييره بأتباعه.

لم يكتفِ هؤلاء القوم بالسّخرية من نوح عليه السلام بل أخذوا يعيّرونه عليه السلام بحقارة أتباعه، وأنّه لم يتّبعه إلّا أراذل النّاس؛ وقد نقل القرآن الكريم قولهم

الشّنيع هذا في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[١٥]. والأرذلون كما في الرّواية عن الإمام الباقر عليه السلام هم الفقراء[١٦] وأيّده الزّمخشريّ[١٧].

٣. تكذيب نوح عليه السلام.

واجهوا نوحًا عليه السلام بالتّشكيك بدعوته وتكذيبه، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾[١٨].

٤. اتّهامه بالضّلالة والانحراف.

مرّة أخرى تتصدّى هذه الجماعة المنحرفة، وتلصق تهمة أخرى بنوح عليه السلام وتصفه بالضّلال؛ وهذا ما أخبر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١٩].

٥. اتّهامه بالجنون.

تابع هؤلاء المنحرفون طريقتهم العدائيّة تُجاه محور الإيمان، وصعّدوا من لغتهم في الشّتم والاتّهام فراحوا يلصقون بالنّبيّ عليه السلام صفة الجنون إمعانًا في توهينه ومبالغة في إيذائه، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ﴾[٢٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾[٢١].

الثّاني: مسائلُ مستوحاةٌ من الآيات الحاكية عن تجربة نوح عليه السلام وقومه.

المسألة الأولى: قيّدت بعض الآيات قوم نوح عليه السلام بقيد (الملأ) فلم تقل الآية: (قال قوم نوح) بل قالت: (ملأ من قومه) أو (وقال الملأ من قومه)؛ فهل في هذا القيد دلالة على جماعة خاصّة ذات رتبة اجتماعيّة عالية، أم هي دالّة على جماعة من عامّة القوم؟

نقل الشّيخ الطّوسي قولين في معنى مفردة (الملأ) في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾(٢٢) نسبهما إلى الـ(قيل) ولم يرجّح في هذه الآية أحدهما؛ فقال: (وقيل في معنى الملأ قولان: أحدهما - إنّهم الجماعة من الرّجال سمّوا بذلك لأنّهم يملؤون المحافل. والثّاني - أنّهم الأشراف، وقيل: الرّؤساء، لأنّهم يملؤون الصّدر بعظم شأنهم، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم أولئك الملأ من قريش)(٢٣)، إلّا أنّ الشّيخ الطّوسيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾(٢٤) اختار المعنى الثّاني وهو أنّ المقصود بالملأ هم أشراف القوم ووجوههم(٢٥)، وتابعه عليه عدد من المفسّرين؛ منهم: الفيض الكاشاني(٢٦) و أبو بكر الجزائريّ(٢٧)، وابن عجيبة(٢٨)، وقال ابن عاشور: (يطلق الملأ على أشراف القوم و قادتهم لأنّ شأنهم أنْ يكونَ رأيهم واحدًا عن تشاور، و هذا المعنى هو المناسب في هذه الآية بقرينة (من) الدّالّة على التّبعيض؛ أيْ: إنّ قادة القوم هم الّذين تصدَّوا لمجادلة نوح عليه السلام والمناضلة عن دينهم بمسمع من القوم الّذين خاطب جميعهم(٢٩).

المسألة الثّانية: أسباب سخرية قوم نوح ﷺ منه واستهزائهم به.

ذهب المفسّرون في هذه المسألة إلى أقوال[٣٠]:

الأوّل: لمّا شرع نوح ﷺ ببناء السّفينة سخروا منه، وقالوا بأنّ نوحًا صار نجّارًا بعد أنْ كان نبيًّا.

الثّاني: أخذوا يستهزئون بمصداقيّة النّبيّ ﷺ في دعواه ظنًّا منهم أنّ عمله الشّاقّ في صنع السّفينة ينافي لطف الله به ومحبّته له.

الثّالث: عدم رؤيتهم مثل هذه الصّناعة قبل ذلك وجهلهم بالانتفاع بها جعلهم يسخرون من نوح ﷺ ويعادونه على وفق مبدأ النّاس أعداء ما جهلوا.

الرّابع: أنّ السّبب في سخريتهم هو طول المدّة الّتي استغرقها نوح ﷺ في إنذار قومه بالغرق مرارًا وتكرارًا من دون أنْ يحدثَ لهم شيء ممّا ذكره، فأغراهم بالاستهزاء ظنًّا منهم بعدم إمكان وقوعه.

الخامس: بناء السّفينة في البريّة وبعيدًا عن موضع الماء جعلهم يتضاحكون ويستهزئون به؛ فماذا يمكن أنْ ينتفعَ نوح ﷺ من صناعتها في صحراء لا يمكن استعمالها فيها[٣١].

المسألة الثّالثة: هل اكتفى قوم نوح ﷺ بالسّخرية والاستهزاء به أم آذوه جسديًّا؟

ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾(٣٢)، أنّ الآية تدلّ على الإيذاء الجسديّ؛ فقد ذهب المفسّرون في معنى (المرجومين) إلى أقوال: أحدها : القتل: والثّاني: الرّجم بالحجارة، والثّالث: الشّتيمة(٣٣).

المسألة الرّابعة: تعليل القوم في عدم اتّباعهم نوح عليه السلام.

لم يخفِ القوم علّة عدم استجابتهم للدّعوة؛ وقد نقل القرآن الكريم تصريحهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾(٣٤)، فكانت العلّة المعلنة في عدم اتّباع القوم هي الاستنكاف من الاجتماع مع بعض النّاس الّذين يرى هؤلاء أنّهم من الطّبقة الأدنى وإيمانهم بنوح عليه السلام يلزم تساوي هؤلاء مع أولئك؛ وهذا مالا يطيقونه لعلوّهم وتكبّرهم(٣٥).

ولعلّ هذا يصحّ دليلًا لمن فسّر (الملأ) برؤساء القوم وأعيانهم.

الأنموذج الثّاني: انحراف قوم هود.

حذّر نبيّ الله هود عليه السلام قومه عاد ودعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، واجتناب الشّرك وعبادة الآلهة من دونه سبحانه؛ فقال تعالى فيهم: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهم هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾(٣٦)، والملحوظ أنّ هذه الآية وبعض الآيات الأخرى استعملت مفردة (أخاهم) في توصيف العلاقة بين الأنبياء نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام وبين أقوامهم؛ وقد وردت الرّوايات الشّريفة في دلالة هذا التّوصيف؛ ومنها رواية

فرات الكوفيّ (ت٣٥٢هـ) عن الإمام السّجّاد عليه السلام (قال: أتى رجل من أهل الشّام إلى عليّ بن الحسين عليهما السلام؛ فقال له: أنت عليّ بن الحسين؟ قال: نعم!، قال أبوك قتل المؤمنين! فبكى عليّ بن الحسين؛ قال: ثمّ مسح وجهه، وقال: ويلك! وبِمَ قطعت على أبي أنّه قتل المؤمنين؟ قال: بقوله: إخواننا بغَوا علينا فقاتلناهم على بغيهم، قال: أمَا تقرأ القرآن؟ قال: إنّي أقرأ، قال: أما سمعت قول الله تعالى: (وإلى عاد أخاهم هودا، وإلى مدين أخاهم شعيبا، وإلى ثمود أخاهم صالحا)؟ قال: بلى، قال: كان أخاهم في عشيرتهم أو في دينهم؟ قال: في عشيرتهم، ثمّ قال: فرّجت عنّي فرّج الله عنك)[٣٧].

وذهب الرّاوندي في تفسيره للآية إلى المعنى نفسه؛ وهو أنّ المقصود بالأخوّة هنا هي أخوّة النّسب وليست أخوّة الدّين[٣٨].

لقد كان هود عليه السلام من العشيرة ذاتها، وكانت رسالته تدور حول تخليص عشيرته وبيئته وقومه من الانحرافات والكفريّات؛ ومع ذلك قابلته عشيرته بالجحود والإنكار، ولم تنفع معهم المواعظ، وكانوا يتشبّثون بمسارهم الانحرافيّ حتّى ذهبوا إلى هود عليه السلام وأعلنوا صراحة عدم إيمانهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٣٩]، فعادوا للإنكار، واتّبعوا سيرة الكفار، ولم يتّعظوا من التجارب السّابقة ونتائجها، بعد تمكّن الانحراف منهم وغلبته على أنفسهم؛ فقادهم إلى الاغترار بقوّتهم وجحدوا النّبوة والهداية والإصلاح؛ فقال الله تعالى عنهم في ذلك:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(٤٠)، فاستلزم هذا التّحدّي حلول العذاب عليهم، قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾(٤١)، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(٤٢).

وقد مثّلت هذه التّجرِبة حلقةً أخرى في سلسلة انحرافات الشّعوب الفكريّة والاعتقاديّة التي واجهها الأنبياء عليهم السلام، ولم يذكر القرآن الكريم أيّ نوع من الخصوصيّة لقيادة فرديّة أو جماعيّة برزت في الجبهة المضادّة للنّبيّ هود عليه السلام سوى ذكره لموقف القبيلة كلّها.

الأنموذج الثّالث: قوم صالح عليه السلام وانحرافهم عن الهدى بعبادة غير الله تعالى.

واجَهَ صالح عليه السلام جماعة أخرى من الجماعات والقبائل الكافرة والمنحرفة؛ وقد عبّر القرآن الكريم عن حالة صالح عليه السلام مع قومه مثلما أخبر عن حالة نوح وهود، واستعمل كلمة (أخاهم) للتعبير عن العلاقة بين هؤلاء الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم، ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤٣)؛ فأغراهم الطّغيان وحملهم العناد على مواجهة النّبيّ صالح عليه السلام وتكذيبه،

وأقدموا على فعلهم الشّنيع بعد أنْ بلغوا من الطّغيان والاستهتار حدًّا أدّى بهم إلى الاعتداء على حرمات الله تعالى، وموطن الطّاعة الّتي أراد الله سبحانه اختبار إيمانهم به، فعقروا ناقة الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٤٤)، ولمّا بلغ بهم التّمادي حدًّا ليس معه علاج أنزل الله سبحانه عليهم العذاب؛ قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(٤٥).

لقد تناولت الآيات القرآنيّة الكريمة طابع المواجهة العامّ من دون أنْ تخوضَ في التّفاصيل؛ ولذلك لم يعلم بوجود مواجهة من حاكم، أو سلطة تقود تلك البلاد، أو تلك القبيلة.

خصوصيّات هذا الاتّجاه من الانحراف.

يكاد يكون هذا الاتّجاه الانحرافيّ في بعده العقائديّ منحصرًا بهؤلاء الأنبياء عليهم السلام وأممهم، ولكن هذا الحصر لا يعدم وجود أقوام منحرفين واجهوا الأنبياء عليهم السلام، ووقعت عليها سنّة الإهلاك من أمثال قوم لوط عليه السلام وغيرهم، ولكن تلك الانحرافات الأخرى نحت منحًى أخلاقيًّا.

أمّا الميزات الّتي يمتاز بها هذا الاتجاه المنحرف؛ فهي:

١ . إنّ الانحراف كان ظاهرة عامّة مستغرقة لعموم هذه الأقوام، وانحصر وجود المؤمنين بأفراد قلائل منهم؛ وهذا الشّمول أشار إليه القرآن الكريم في

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٤٦)؛ فجاء الرّدّ منهم: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾(٤٧)؛ فالتّكذيب حاصل من جلّ القوم وأكثرهم، وليس من فئة المترفين والرّؤساء منهم فحسب.

وأمّا عاد وهم قوم نبيّ الله هود عليه السلام وقبيلته فقد جحدوا أخاهم ونبيّهم هودًا عليه السلام وعاندوه، فذكر القرآن الكريم جحودهم وكفرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٤٨)؛ فأنكروا عليه ووسموه بالسّفاهة، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(٤٩).

وفي هذا السّياق قد يرد إشكال مفاده: أنّ قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾(٥٠) فيه دلالة على أنّهم كان لهم جبابرة يؤثّرون فيهم، ويحرّكونهم باتّجاه العناد والتّمرّد؛ يقول السّيّد الطّباطبائي في تفسير الآية: (اتّبعوا أمر كلّ جبّار عنيد من جبابرتهم فألهاهم ذلك عن اتّباع هود وما كان يدعو إليه، و الجبّار العظيم الّذي يقهر النّاس بإرادته، ويكرههم على ما أراد)(٥١).

ولعلّ هؤلاء الجبابرة هم رؤساء القوم ووجهاؤهم ورؤساء القبائل عندهم مثلما هو الحال مع الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ لم يعلم أنّ هناك حاكمًا كان يمارس الحكم والسّلطة، ويسري نفوذه على المنطقة كلّها، بل إنّ المنطقة كانت تحت

سلطة نظام القبائل دون وجود دولة ذات نظام سياسيّ واقتصاديّ واجتماعيّ وهرميّة سلطويّة وحكوميّة؛ فجاءت المواجهة بين النّبيّ محمّد ﷺ وبين قريش وأكابرها ورؤساؤها، بخلاف ما كان من أمر موسى عليه السلام ومواجهته لسلطة حاكمة يحكم فيها فرعون الّذي كان يملك مقاليد الحكم والسّلطة، وهكذا كانت تجارِب المقاومة الّتي قادها هؤلاء الأنبياء الثّلاثة عليهم السلام.

٢. إنّ يد الأنبياء الثّلاثة عليهم السلام المذكورين كانت مبسوطة من جهة نشر الدّعوة، ولم يصطدموا بسلطة عليا غاشمة تحبسهم وتراقبهم، وتمنع دعوتهم، وتقيّد حركتهم التّبليغيّة، وتشغلهم بالمواجهة معها، أو تعرّض حياتهم للقتل أو الإحراق أو السّجن وغيره؛ ومن هنا نجد القرآن الكريم يهتمّ ببيان هذه القضيّة؛ وهي أنّ مواجهة نوح عليه السلام كانت تُجاه طاغوتيّة الأمّة وليس تُجاه طاغوتيّة الفرد أو السّلطة، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٥٢).

ثمّ بيّن القرآن الكريم أنّ خشية نوح عليه السلام وحزنه كان بسبب عدم إيمان قومه، وليس غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٥٣).

بيد أنّ هذا الأمرَ لا ينفي وجود قادة ورؤساء لهذه الأقوام يقفون خلف عامّتهم؛ ومع ذلك فإنّ المواجهة كانت شاملة لعموم القوم؛ والأمر نفسه حدث مع بعض الأنبياء كصالح ولوط ويونس وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

٣. إنّ جميع هذه التّجارب الثّلاثة أفضت إلى نهاية سلبيّة بعدم هداية هذه الأقوام والأمم إلى منهج الرّشد ودعوة الحقّ؛ فحلّ عليهم الغضب والعقاب الجماعيّ بالإهلاك، وفي هذا دلالة على أنّ المشروع وإنْ كان إلهيًّا فلا مانع عقليّ من اصطدامه بموانعَ بشريّة، والنّتيجة عدم تحقّق جميع أهدافه مع أنّ آمال الأنبياء عليهم السلام تذهب باتّجاه هداية أقوامهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، واجتناب الفساد وعبادة الأوثان.

ومن جهة أخرى فإنّ عدم نجاح المشروع الهدايتيّ يدلّ في أحد وجوهه على عدم إجبار الأمم على الهداية؛ إذ إنّ مهمّة المصلح تنحصر في الدّعوة ذات المناهج القرآنيّة الثّلاثة: الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالّتي هي أحسن، وهي الّتي تضمّنتها آية سورة النّحل في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٥٤).

٤. إنّ أغلب أقوام هؤلاء الأنبياء عليهم السلام كانوا على منهج الكفر، ولكن في مقابل هذه الأغلبيّة توجد قلّة منهم آمنوا بنبيّهم الّذي بعثه الله سبحانه لهم وخطّه الإلهيّ، فنجَوا من الانزلاق إلى الانحراف، كما أخبرنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٥٥).

٥. لمّا استغرقت هذه الأمم بالعصيان، وبالغت في الطّغيان حقّ عليهم العقاب، وحلّ بهم العذاب لظلمهم وفسادهم، وكانت العاقبة هي ما نبّأ عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾(٥٦).

وقد استعمل القرآن الكريم أشدّ الألفاظ والتّعبيرات لبيان كيفيّة الإهلاك إشعارًا بهول الأمر؛ لكي تتّخذَ الأمم اللّاحقة العبرة ممّا لحق بالأقوام السّابقة جرّاء هذه الأفعال المنحرفة عن الخطّ الإلهيّ؛ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾(٥٧)، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾(٥٨).

الاتّجاه الثّاني: انحراف القيادة المستكبرة وأتباعها.

الاتّجاه الثّاني من اتّجاهات الانحراف وأقسامه هو انحراف الرّؤساء والطّغاة، الّذين يحكمون الأمم والشّعوب ويسوقونهم إلى الكفر بالله تعالى، ومحاربة أنبيائه وأتباعهم، وسوق الأمم والشّعوب باتجاه الشّرك والكفر والجحود وعندئذٍ محاربة أيّ دعوة يأتي بها المصلحون لتخليص أممهم من عبادة الأوثان والأشخاص، ومنهم هؤلاء الجبابرة والقيادات المستكبرة لخشية هؤلاء القادة من فقدان مكانتهم بالسّيطرة على الشّعوب واستعبادهم.

وقد واجه الأنبياء عليهم السلام هذا الواقع المزدوج في صعوبة المواجهة وخطورتها، ولعلّ النّبي إبراهيم عليه السلام المصداق الأبرز لهذا النّوع من المواجهة؛ فقد واجه أبو الأنبياء عليه السلام انحراف قومه وكفرهم حينما دعاهم إلى التّوحيد ونبذ عبادة الأصنام، والبراءة منها، فقال القرآن الكريم على لسانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيم لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٥٩)، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيم لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾(٦٠)، ثمّ بعد أنْ تبرّأ من عبادتهم للأوثان دعاهم لعبادة الله تعالى وتقواه قال تعالى: ﴿وَإبراهيم إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٦١)، وذكّر إبراهيم عليه السلام قومه بالتّجارب السّابقة، وحذّرهم من مآل الكفر والانحراف وأثره في أمم الأنبياء عليهم السلام السّابقين، ودعاهم للتّفكّر والاعتبار بما حدث لهذه الأمم.

ولكن الدّعوة الإبراهيميّة هذه صدمت كبرياء الطّاغوت نمرود بن كنعان الّذي دفع به تجبّره لمحاجّة إبراهيم عليه السلام؛ فقد مثّلت دعوة إبراهيم عليه السلام تهديدًا مباشرًا لسلطته الفاسدة، وهدّدت عرش هذا الطّاغية الّذي كان يستعبد القوم، ويتحكّم في عقولهم وأجسادهم، فخشي نمرود أنْ يفضحَ إبراهيم عليه السلام مناهجه وأدواته ومبانيه الّتي استطاع عن طريقها تدجين الأمّة والسّيطرة عليها؛ فأرسل إلى إبراهيم عليه السلام وسأله مستعملًا أسلوب التّرهيب من أوّل الأمر: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبراهيم لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾(٦٢).

ومن هنا بدأت المواجهة بين التّوحيد الإبراهيميّ وبين الشّرك النّمروديّ؛ وقد لخّص القرآن الكريم المشهد الحجاجيّ الاستدلاليّ المثير للعقول بين إبراهيم ﷺ وبين نمرود في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٦٣).

ولمّا وجد نمرود أنّ الأمور قد تفلّتت من بين يديه، وأنّ منطق إبراهيم ﷺ وحجّته أقوى من طمسها بلغة التّضليل لجأ إلى سلطته السّياسيّة، وأعلن وبطانته قرارهم بإحراق النّبيّ المصلح: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾(٦٤).

تناصر نمرود وحاشيته تُجاه إبراهيم ﷺ، وذكر القرآن الكريم هذا الموقف من نمرود وجماعته وتماهيهم مع الظّلم والباطل بما يعدّ آية وتجربة للمؤمنين في كلّ زمان للتّحرّز من الاتّباع الأعمى للحاكم المستبدّ؛ فقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٦٥).

وبذلك اجتمع في مواجهة النّبيّ إبراهيم ﷺ خصمان تمثّلا بالحاكم المستبدّ، والأمّة المنحرفة.

خصوصيّات هذا الاتّجاه المنحرف.

١. إنّ المواجهة في هذا الاتّجاه مزدوجة ومضاعفة؛ فقد تضافرت مواقف السّلطة السّياسيّة ومواقف الأمّة تُجاه منهج الإصلاح النّبويّ.

٢. تعرّض النّبيّ إبراهيم عليه السلام إلى خطر القتل؛ الأمر الّذي لم يسبق أنْ تعرّض له نوح وهود وصالح عليهم السلام.

٣.تأثّر القوم بالسّلطة الكافرة وتبعيّتهم للحاكم المنحرف؛ سواء كان ذلك بإجبار منه أم بإرادة واختيار منهم، وتمسّكهم بمنهج الكفر والضّلال، جعلهم يساندون دعوة نمرود لقتل إبراهيم عليه السلام.

٤.عدم اتّعاظ قوم نمرود بالتّجارب التّأريخيّة السّابقة وحلول العقاب الجماعيّ بعاد وثمود.

٥. إنّ مشكلة هؤلاء القوم هو الاتّباع الأعمى لرؤسائهم، وكذلك لسنن الآباء والأجداد واعتقاداتهم، والتّعصّب لها والتّسليم بها من دون تمحيص وتحقيق.

٦.لم يستند الأنبياء عليهم السلام في هذا الاتّجاه إلى قاعدة جماهيريّة مؤمنة تناصرهم تُجاه تيّار الكفر والانحراف، مثلهم مثل من سبقهم من الأنبياء عليهم السلام.

٧. لم يرد نصّ صريح في القرآن الكريم عن مصير نمرود، نعم! ورد في الرّوايات التّأريخيّة وفي بعض التّفاسير أنّ الله تعالى قد أرسل بعوضة دخلت في

أنفه ومات جرّاء ذلك [٦٦]، كذلك لا يتوافر نصّ في القرآن الكريم عن مصير قوم نمرود ولا دليل على إهلاكهم بعذاب شامل مثلما أخبر القرآن الكريم عن أقوام بعض الأنبياء عليهم السلام.

الاتّجاه الثّالث: الانحراف الفرعونيّ والانقسام الاجتماعيّ.

الاتّجاه الثّالث من اتّجاهات الانحراف وأنواعها هو النّموذج الفرعونيّ الّذي انقسمت فيه الأمّة على جبهتين: جبهة كافرة مساندة لفرعون، وهم وزراؤه وجنوده وأعوانه ومعهم جماعات الهمج الرّعاع الّذين ينعقون مع كلّ ناعق، ويتّبعون اتّباعًا أعمى، ويدينون بدين ملوكهم وحكّامهم، وأخرى مؤمنة إلّا أنّها مستضعفة ومقهورة، ويقف على رأس هذه الجبهة المظلومة موسى عليه السلام؛ فكانت الأغلبيّة من الأمّة حينئذٍ في صف المواجهة تُجاه الانحراف والكفر، وكان موسى عليه السلام يتحرّك في بعدين:

الأوّل: مواجهة فرعون الظّالم لردعه عن الطّغيان والكفر.

الثّاني: تحمّل مسؤولية قيادة الأمّة المضطهدة والدّفاع عنها وتخليصها من القتل أو العبوديّة.

لقد كان فرعون رمزًا من رموز الطّغيان؛ إذ وصفه القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٦٧]؛ الأمر

الّذي أدّى إلى احتدام المواجهة بين خطّي الإيمان والكفر، بين الخطّ المؤمن الّذي يمثّله موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل المضطهدين من جهة، والخطّ الكافر المنحرف الّذي يتصدّى لقيادته الحاكم المتجبّر فرعون وأتباعه من الجهة الأخرى، ولكن على الرّغم من تجذّر الكفر والطّغيان في حياة فرعون إلّا أنّه لم يتمكّن من سحق الرّوح الإيمانيّة لدى جميع المحيطين به بعد أنْ ظهر من داخل بيته نموذج إيمانيّ تمثّل بزوجة فرعون المؤمنة الّتي استطاعت أنْ تؤثّر في قراره وإقناعه بإيواء طفولة النّبيّ المنقذ؛ وهذا يدلّ على أنّ الإيمان لا تعيقه حصون الكفر من النّفوذ إلى القلوب مهما علت هذه الحصون، وتعقّدت في الإحكام والبناء.

لم يكن مآل تجربة الانحراف الفرعونيّة مختلفًا عن عاقبة قوم نوح وهود عليهما السلام من جهة حلول الغضب الإلهيّ، وتأثير الانحراف في مصير هؤلاء القوم؛ فجاءهم العذاب الّذي أخبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾(٦٨).

ولكن ما حدث بعد ذلك لفئة المستضعفين من الانحراف أكثر خطرًا من الانحراف السّابق كونه انحرافًا من داخل الجماعة المؤمنة.

خصوصيّات اتّجاه الانحراف الفرعونيّ:

١ .الانقسام الاجتماعيّ كان سمة من سمات العهد الموسويّ؛ فقد كان المجتمع منقسمًا إلى طبقتين: إحداهما: مستكبرة، والأخرى مستضعفة، وهذه التّجرِبة – من هذه النّاحية- تختلف عن التّجارب السّابقة الّتي كانت الغلبة فيها لمعسكر الأمّة المنحرفة عددًا وعدّة في مقابل النّبيّ المصلح وحده، أو مع قلّة من أنصاره، في ما أنّ تجرِبة موسى ﷺ تغيّرت فيها الكفّة وأخذت تميل إلى جهة الصّالحين بلحاظ الأعداد؛ وهذا التّحوّل أوجد حالة جديدة من التّشكيل الأمميّ آيدلوجيًّا.

٢ .التّضليل الإعلاميّ: استعمل فرعون طريقة الإيهام والتّضليل وادّعاء الحرص والمحافظة على دين الأمّة وعقيدتها بغرض إبقائها على منهج الانحراف ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾(٦٩)، فكان ادّعاء فرعون الخوف على الدّين وحمايته أحد مظاهر التّضليل والكذب.

٣. نفوذ عناصرَ مؤمنةٍ إلى داخل بيت الطّاغية الكافر، وتأثير ذلك في قراراته؛ فقد كانت زوجة فرعون من المؤمنات الّتي كان حضورها في قلب الكفر مؤثّرًا في مستقبل الدّعوة ونجاحها؛ إذ تمكّنت من حماية رمز الإيمان آنذاك وهو موسى ﷺ؛ فقد قصّ القرآن الكريم موقفها؛ إذ قال : ﴿وَقَالَتِ

امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٧٠)، فأصبحت مثلًا للمؤمنين رجالًا ونساءً وقدوةً لهم؛ إذ عرفّها الله سبحانه بهذه الخاصّيّة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٧١) على عكس حالات الأنبياء عليهم السلام السّابقة الّتي تغلغل الكفر والعناد والانحراف الفكريّ إلى داخل بيوتهم فطال زوجاتهم وأولادهم، وفي هذا دلالة على أنّ حركة الإيمان أخذت بالتّمدّد وتوسّعت لتتحرّر مِساحة جديدة من المساحات الّتي سيطر عليها الانحراف، كما فيه دلالة على الارتباط النّسَبيّ والسّببيّ بالنّبيّ لا يكفي وحده؛ لكي يكونَ الإنسان مؤمنًا ومهتديًا، ولا يعصم من الزّلل والانحراف.

إنّ تعرّضنا لهذه الظّواهر السّابقة عن الإسلام وتحليلها ليس بغرض الاستعراض التّأريخيّ لها بل يهدف إلى تحويل هذه القضايا والمواقف إلى عناصرَ متحرّكةٍ في واقعنا الإسلاميّ المعاصر والإفادة منها في حياة المسلمين العمليّة ومعرفة الانحراف والتّصدّي له.

المبحث الثّاني: الانحراف في المجتمع الإسلاميّ -الظّروف والبيئات-.

عرضنا في المبحث الأوّل لمحة تأريخيّة من مشاهد الانحراف الّتي مرّت بها الأمم ومدى تأثير هذه التّجارب على الأمم اللّاحقة بعدها، ومنها الأمّة الإسلاميّة الّتي لم تنجُ هي الأخرى من مظاهر الانحراف منذ ولادة الإسلام وبعثة النّبيّ الأكرم ﷺ .

لقد مرّ الاتّجاه الانحرافيّ في المجتمع الحاضن للإسلام بمراحلَ عدّة نعرضها في المطالب الآتية:

المطلب الأوّل: الانحراف قبل الدّعوة الإسلاميّة وحين ولادة الإسلام.

تدرّجت البشريّة في تلقّي الإيمان والسّير باتّجاه التّحوّل الكبير نحوه ابتداء بالأمّة المنحرفة، ثمّ الأمّة المنقسمة بين الانحراف والاستضعاف، بعدها بلغت البشريّة ذروة التّحوّل بوصولها إلى مرتبة الأمّة الخيّرة؛ فقد كان واضحًا من هذه النّماذج التّأريخيّة الّتي عرضناها في البحث أنّ حركة الأمم أخذت تتحوّل نحو الإيمان، إلّا أنّ هذا التّحوّل لم يكن تحوّلًا تامًّا أدّى إلى إزالة الانحراف والكفر من على وجه الأرض؛ فلم تنحسر حالة الانحراف، وبقيت ترافق الأمم بصورة أو بأخرى حتّى وصلت إلى مجتمع الحجاز والجزيرة العربيّة حيث مهد الإسلام؛ فقد كان القوم يخوضون في مستنقع الجهل والخرافات وعبادة الأصنام، ويتّبعون آباءهم؛ فهم أبناء أولئك القوم الّذين قال تعالى

فيهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾(٧٢).

فجاءت الرّسالة المحمّديّة العظيمة لترسي دعائم الأمّة الخيّرة، وتحرّر العقل البشريّ من أسر الانحراف الفكريّ والاخلاقيّ المهيمن في أجواء الجزيرة والحجاز آنذاك، حتّى تمكّن النّبيّ محمّد ﷺ بعد سنين قليلة من إسقاط مملكة الشّرك القرشيّة، وتأسيس الدّولة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة، وبسط الإسلام.

كانت قريش تحمل جينات شركيّة موروثة من منظومة الانحرافات التّأريخية السّائدة عند الأقوام السّالفة كعبادة الأوثان والآلهة والنّجوم، واتّباع الآباء، وغير ذلك من مصاديق الانحراف وكان رؤساء قريش كأبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان يتّبعون سنن الذين من قبلهم من رؤساء قوم هود وغيرهم، ولكن سرعان ماتبددت مشاريع رؤوس قريش وأعيانها أمام الفتح الإسلامي بفتح مكة المكرّمة، ودخول النّبي اليها فاتحا معلنا انتصار التوحيد واندحار الشّرك، ودخول النّاس في دين الله افواجا كما جاء في سورة النّصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(٧٣).

المختلف في تجربة التّغيير المحمّديّة هو أنّ الدّعوة في زمن الأنبياء السّابقين ومواجهة انحرافات أممهم أفضت إلى هلاك الأقوام السّالفة بخلاف ما أفضت إليه الدّعوة الإسلاميّة، وحركة النّبيّ الأكرم محمّد ﷺ؛ فإنّه لم يلجأ كما فعل من

سبقه من الأنبياء عليهم السلام للدّعاء على قومه بمن أجل إهلاكهم؛ لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم استطاع أنْ يُوجِد تحوّلًا كبيرًا في حياة الأمّة وتغييرها من أمّة مشركة عابدة للأوثان إلى أمّة موحّدة ومتديّنة وصفها القرآن الكريم بأنّها خير أمّة أخرجت للنّاس؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٧٤).

وبهذا الفتح تجاوز النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع أمّته محنة المواجهة مع الانحراف والكفر، ونجح في هزيمة الشّرك؛ الأمر الّذي عجز عنه الأنبياء عليهم السلام جميعهم.

المطلب الثّاني: مرجعيّات تشخيص الانحراف ومصادر تحصين الأمّة.

من أكثر الأمور أهمّيّة لمنع وقوع الانحراف الرّجوع إلى الموازين الّتي تتبيّن الحقائق بها، وتحدّد ماهيّة الموضوعات وطبيعة الانحراف ومرتكزاته وأدواته وشعاراته؛ ومن هذه المرجعيات:

١ .مرجعيّة القرآن الكريم.

لا شكّ في أنّ التّدبّر في آيات القرآن الكريم، والسّير على وفق تعاليمه يُعَدُّ من عناصر تشخيص الأفكار وتمييزها؛ فالقرآن الكريم ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾(٧٥)، يقول السّيد الطّباطبائي في تفسير الآية : (النّاس، وهم الطّبقة الدّانية من الإنسان الّذين سطح فهمهم المتوسّط أنزل السّطوح، يكثر إطلاق هذه الكلمة في حقّهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الرّوم – ٣٠، و قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت - ٤٣، و هؤلاء أهل التّقليد لا يسعهم تمييز الأمور المعنويّة بالبيّنة و البرهان، و لا فرّق الحقّ من الباطل بالحجة إلا بمبين يبين لهم و هاد يهديهم، و القرآن الكريم هدى لهم و نعم الهدى، و أما الخاصة المستكملون في ناحيتي العلم و العمل، المستعدون للاقتباس من أنوار الهداية الإلهية و الرّكون إلى فرقان الحق فالقرآن الكريم بينات و شواهد من الهدى و الفرقان في حقهم فهو يهديهم إليه و يميِّز لهم الحق و يبيِّن لهم كيف يميِّز، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة – ١٦)[٧٦].

كما إنّ القرآن الكريم أوصى بالتثبت عند سماع الأخبار والأقوال، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٧٧].

وقد دعا الأئمّة الأطهار عليهم السلام شيعتهم وشجّعوهم على عرض الأفكار على القرآن الكريم، وجعله مقياسًا لصحّة الأقوال والأفعال أو عدم صحّتها؛ فقد جاء في الرّواية الشّريفة (عن أيّوب بن الحرّ؛ قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: كلّ شيء مردود إلى الكتاب والسّنة، وكلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف)[٧٨].

ومثله عنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ قال: (أيّها النّاس ما جاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله)[٧٩].

ومن هنا يثبت أنّ القرآن الكريم معيار لتشخيص الانحراف واجتنابه.

٢. مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام وسيرتهم.

تُعَدّ سيرة الأئمّة الأطهار عليهم السلام ومواقفهم وأقوالهم معيارًا آخرَ من معايير التّشخيص، ومصدرًا من مصادر الوعي الاجتماعيّ فهم مرجعيّة فكريّة انتفعت منها الأمّة في درء الشّبهات؛ فهم أمناء الله تعالى على وحيه، وخلفاؤه في أرضه، وقد وردت الآيات الكريمة بالرّجوع اليهم، والأخذ منهم، والاستنان بسنّتهم، ومنها قوله تعالى: ﴿فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٨٠]؛ فالمصداق الأكمل لأهل الذّكر هم الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

أمّا في جانب الخلاف فقد حدّد القرآن الكريم المرجع وأشار إلى أهل البيت عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٨١]، وقرن الإيمان بالرّجوع إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وتحكيمه؛ فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٨٢].

أنّ الله سبحانه لطف بهذه الأمّة؛ إذ جعل فيها من يرشدها، ويهديها، ويوازن حركتها، ويحافظ على وسطيّتها، ويدير دفّة سفينتها، ويمنعها من الجنوح في بحر الخطايا المتلاطم، حين جعل أهل البيت عليهم السلام مرجعيّة للمسلمين على مدى العصور والأزمنة.

جاء في عيون أخبار الرّضا عليه السلام عن الرّضا عن آبائه عليهم السلام؛ قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: النّجوم أمان لأهل السّماء، وأهل بيتي أمان لأمّتي)[٨٣] .

٣. مرجعيّة العلماء الرّبّانيّين.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معياريّة العلماء ومرجعيّتهم أنّه قال: (الفقهاء أمناء الرّسل ما لم يدخلوا في الدّنيا. قيل: يا رسول الله ما دخولهم في الدّنيا؟ قال: أتباع السّلطان فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم)[٨٤]؛ فمناط العلماء ومعياريّتهم هي عدم إذعانهم لسلاطين الجور، ودخولهم في بطانتهم؛ فإذا كانوا يتميّزون بهذه الخصائص، ويخضعون لهذه الشّرائط فيصح حينئذٍ الرّجوع إليهم والأخذ عنهم واللّواذ بهم للتترّس من الفتن والانحرافات؛ وهذا هو مفاد التّوقيع المبارك عن صاحب الأمر والزّمان عجّل الله تعإلى فرجه الشّريف في الرّجوع إلى العلماء: (وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا؛ فإنّهم حجّتي عليكم، وأنا حجّة الله)[٨٥].

الرّبّانيّة الّتي تحدّث عنها القرآن الكريم في قوله تعإلى: ﴿ما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[٨٦] -إذًا- تستلزم استقامة المنهج الّذي يسلكه العلماء؛ فاتّصافهم بالرّبّانيّة يمنع من غلبة الهوى على أنفسهم، والوقوع في الضّلال وإضلال غيرهم.

نتائج البحث:

توصّل البحث إلى مجموعة من النّتائج؛ أهمّها ما يأتي:

١. يُعَدّ الانحراف العقديّ والفكريّ والأخلاقيّ إشكاليّة تأريخيّة عانت منها البشريّة منذ ولادتها وعلى مرّ تأريخها، ولم تنجُ أمّة أو جماعة من تغلغلها وآثارها وعواقبها.

٢. تفاوتت جبهات المواجهة في مقابل الأنبياء عليهم السلام فلم تكن على وتيرة واحدة من جهة الكيفيّة والكمّيّة

٣. تفاوت تلك الجبهات أفرز بعض الخصوصيّات لكلّ جبهة من جهة الأثر النّفسيّ والجسديّ تُجاه الأنبياء عليهم السلام وحجم التّهديد والخطر الّذي كان يحيق ويحيط بهم.

٤. ابتلى بعض الأنبياء عليهم السلام بتسلّل الكفر والانحراف إلى بيئاتهم الأسريّة؛ فضلًا عن العشيرة والقبيلة والقوم في ما تمكّن بعض الأنبياء عليهم السلام من التّأثير في المحيط الخاصّ للطّاغوت كما في حالة موسى عليه السلام وفرعون.

٥. إنّ القابلية على الانحراف تقابلها قابليّة على الهداية والاستقامة، وإنّ الإنسان غير مجبر على سلوك طريق الانحراف.

٦. إنّ الإسلام وضع مصدّات روحيّة وعلميّة لمواجهة الانحراف، والتّخلّص من الوقوع في براثنه منها القرآن الكريم، وأهل البيت عليهم السلام والعلماء.

الهوامش:

١- البلد: .١٠

٢- مكارم الشّيرازي: مكارم: تفسير الأمثل:١: ٨٧ .

٣- الأنعام: ١٤٨.

٤- فصّلت:٤٦ .

٥- الأعراف: ٥٩ .

٦- الأعراف: ٦٠- ٦٤.

٧- التحريم: ١٠ .

٨- هود: ٤٢ .

٩- هود: ٤٣ .

١٠- هود: ٣٢.

١١- الفرقان: ٣٧.

١٢- هود: ٤٤.

١٣- هود: ٣٨.

١٤- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ١٢: ٦٨.

١٥- الشّعراء: ١١١.

١٦- القمّيّ: علي بن إبراهيم، تفسير القمّيّ، ٢: ٣٣٩.

١٧- ينظر: الزّمخشري: الكشّاف، ٢: ٦٧٠

١٨- الأعراف: ٦٤.

١٩- الأعراف: ٦٤.

٢٠- القمر: ٩.

٢١- المؤمنون: ٢٥.

٢٢- هود: ٣٨.

٢٣- التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، وينظر: الفخر الرّازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٧: ١٧٩.

٢٤- المؤمنون: ٣٣.

٢٥- ينظر: التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق..

٢٦- الفيض الكاشاني: الأصفى في تفسير القرآن ، ١: ٤٢٩

٢٧- أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ٣: ٥١٧.

٢٨- ينظر: ابن عجيبة، البحر المديد، ٥: ٢٣.

٢٩- ابن عاشور: التّحرير والتّنوير، ٨: ١٩٠.

٣٠- ينظر: الفخر الرّازيّ: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٧: ١٧٩.

٣١- ينظر: الطّبرسي: ٢: ١٨٨.

٣٢- الشّعراء: ١١٦.

٣٣- ينظر: الزّحيلي: ١٩: ١٨٨.

٣٤- الشّعراء: ١١١.

٣٥- ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٣: ١١٩.

٣٦- هود: ٥٠.

٣٧- فرات الكوفيّ: تفسير فرات الكوفيّ، ١: ١٩٢.

٣٨- ينظر: الرّاوندي: قطب الدين، فقه القرآن، ٢: ٣٨٦.

٣٩- هود: ٥٣.

٤٠ : فصلت: ١٥.

٤١- الذاريات: ٤١.

٤٢- الحاقة: ٦.

٤٣- الأعراف: ٧٣.

٤٤- الأعراف: ٧٧.

٤٥- الأعراف: ٧٨.

٤٦- الشّعراء: ١٠٥-١٠٨.

٤٧- الشّعراء: ١١٦.

٤٨- الأعراف: ٦٥- ٦٧.

٤٩- الأعراف: ٦٥- ٦٧.

٥٠- هود: ٥٩

٥١- الطّباطبائي: الميزان في تفسير القرآن: ١٠: ١٥٦.

٥٢- هود: ٣٢.

٥٣- هود:٣٦.

٥٤- النّحل: ١٢٥.

٥٥- الحديد: ٢٦.

٥٦- الكهف: ٥٩.

٥٧- هود: ٨٣.

٥٨- الحجر: ٧٤،

٥٩- الأنعام:٧٤.

٦٠- الزّخرف:٢٦.

٦١- العنكبوت:١٦.

٦٢- مريم: ٤٦.

٦٣- سورة البقرة: ٢٥٨.

٦٤- الأنبياء: ٦٨.

٦٥- العنكبوت: ٢٤.

٦٦- ينظر: ابن جرير الطّبري ، تاريخ الطّبري ، ١: ٢٨٧.

٦٧- القصص:٤.

٦٨- الأنفال: ٥٤.

٦٩- غافر: ٢٦.

٧٠- القصص:٩

٧١- التّحريم: ١١.

٧٢- الزّخرف: ٢٣.

٧٣- النّصر: ١-٣.

٧٤- آل عمران: ١١٠.

٧٥- سورة البقرة: ١٨٥.

٧٦- الطّباطبائي: الميزان في تفسير القرآن:٢: ١٢.

٧٧- الحجرات:٦.

٧٨- الكليني، الكافي:١: ٩٢.

٧٩- الحر العاملي، وسائل الشّيعة: ٦: ٢٥٠.

٨٠- النّحل: ٤٣. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أهل الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء:٧).

٨١- النّساء: ٥٩.

٨٢- النّساء: ٦٥.

٨٣- الشّيخ الصّدوق: ٢: ٣٠.

٨٤- المجلسيّ: محمد باقر: بحار الانوار:٢: ١١٠.

٨٥- الرّاوندي: الخرائج والجرائح:٣: ١٣٠. وينظر: الحرّ العاملي: وسائل الشّيعة: ٢٧: ١٢٤.

٨٦- آل عمران: ٧٩.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم كتاب الله المجيد.

١. أبو بكر الجزائري: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، النّاشر: مكتبة العلوم والحكم-المدينة المنورة، ط٥ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢. ابن جرير الطّبري: محمد بن جرير، تاريخ الطّبري = تاريخ الرّسل والملوك النّاشر: دار التراث – بيروت، ط٢، ١٣٨٧ه ، ١: ٢٨٧.

٣. الحرّ العامليّ: أبو جعفر محمد بن الحسن بن عليّ، تفصيل وسائل الشّيعة إلى تحصيل مسائل الشّريعة، ت: عبد الرّحيم الرّبّانيّ الشّيرازيّ، النّاشر: دار إحياء التّراث العربيّ– بيروت، ط١، ١٤٠٣ه-١٩٨٣م.

٤. الرّاوندي: قطب الدّين أبو الحسين سعيد بن عبد الله: الخرائج والجرائح، ت: مؤسّسة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه، النّاشر: مؤسّسة الإمام الحجّة عجّل الله تعالى فرجه- قم المقدّسة ، ط١، ١٤٠٩ه.

٥. الرّاوندي: قطب الدين، فقه القرآن، ت: أحمد الحسينيّ باهتمام السّيّد محمود المرعشي، النّاشر: مكتبة آيه الله العظمى النّجفيّ المرعشيّ، قم المقدّسة، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٦. الزّحيلي: وهبة بن مصطفى، لتفسير المنير فى العقيدة والشّريعة والمنهج، النّاشر: دار الفكر المعاصر، بيروت-دمشق، د.ط، ١٤١٨هـ.

٧. الزّمخشريّ: أبو القاسم محمود بن عمر(ت٥٣٨ه)، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، النّاشر: دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د.ط، د.ت.

٨. الشّيرازي: مكارم: تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، النّاشر: مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات-بيروت، ط١، ١٤٣٤ه-٢٠١٣م.

٩. الصّدوق: عليّ بن بابويه، عيون أخبار الرّضا، تصحيح وتعليق وتقديم : الشّيخ حسين الأعلمي، النّاشر: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت ، د.ط ، ١٤٠٤ه- ١٩٨٤م.

١٠. الطّباطبائي: محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: منشورات مؤسّسة الأعلميّ، ط١، ١٤١٧ه-١٩٩٧م.

١١. الطّبرسيّ: أبو عليّ عليّ الفضل بن الحسن، جوامع الجامع، النّاشر: مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، ط١، ١٤١٨ه.

١٢. الطّوسيّ: أبو جعفر محمّد بن الحسن(ت٤٦٠هـ)، التّبيان في تفسير القرآن، النّاشر: مؤسّسة النّشر الإسلاميّ، قم، ط٢، ١٤٣١هـ .

ابن عاشور: محمد بن الطّاهر، التّحرير والتّنوير، النّاشر: دار سحنون للنشر والتوزيع -تونس، د.ط ، ١٩٩٧ م، ١٢: ٦٨.

١٣. ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهديّ، البحر المديد، النّاشر: دار الكتب العلميّة - بيروت، ط٢، ١٤٢٣ه-٢٠٠٢م، ٥: ٢٣.

١٤. الفخر الرّازي: فخر الدّين محمد بن عمر التّميميّ(ت٦٠٤هـ)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، النّاشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

١٥. فرات الكوفيّ: أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات، تفسير فرات الكوفيّ ،ت: محمد الكاظم ، النّاشر: مؤسسة التاريخ العربي ، ط١، ١٤٣٢ه- ٢٠١١م، ١: ١٩٢.

١٦. الفيض الكاشاني: محمد محسن، الأصفى في تفسير القرآن، ت: محمد حسين درايتى ومحمد رضا نعمتي، النّاشر: مركز النّشر التابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ، ط١، ١٤١٨ هـ.

١٧. القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاريّ الخزرجي(ت٦٧١ه)، الجامع لأحكام القرآن، ت: هشام سمير البخاري، النّاشر : دار عالم الكتب، الرّياض، د.ط ، ١٤٢٣ه- ٢٠٠٣م .

١٨. القمّيّ: أبو الحسن علي بن إبراهيم، تفسير القمّيّ، النّاشر: مؤسّسة الإمام المهديّ، قم، ط١، ١٤٣٥هـ.

١٩. الكليني: محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرّازي: الكافي، النّاشر: منشورات الفجر، بيروت، ط١، ١٤٢٨ه-٢٠٠٧م.

٢٠. المجلسيّ: محمّد باقر بن محمّد تقيّ بن مقصود عليّ: بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ت: محمد الباقر البهبودي وعبد الرّحيم الرّبّانيّ الشّيرازيّ، النّاشر: مؤسّسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ه- ١٩٨٣م.